

التعددية الثقافية والتعايش مع الآخر في السرد الروائي للطاهر وطار-الشمعة والدهاليز أنموذجا

Cultural pluralism and coexistence with the other in the narrative of Al-Taher Watar-Al-Sham`a and the corridors as a model

د/ أسماء بن عيسى *

جامعة بلحاج بوشعيب لعين تموشنت (الجزائر)

benisafasmaa@gmail.com

تاريخ الوصول 2021/06/15 تاريخ القبول 2021/08/20 تاريخ النشر 2021/09/09

ملخص:

لطالما شكّل الإنسان مصدر غموض كبير ، ذلك أن طبيعته الفكرية مبنية على الاختلاف ما انعكس على النظرة العامة إلى الحياة ، و بالتالي ظهرت مفاهيم عديدة حاولت التعبير عن هذا الوضع منها "التنوع" أو "التعدد" ،الذي يعني التباين في وجهات النظر ، سواء في السياسة أو الاقتصاد أو الدين أو الثقافة.ومن ثم نحن إزاء أنماط متعددة منها التنوع الثقافي موضوع دراستنا ،بما يستلزمه من ثقافة التعايش و قبول الآخر بكل روح سلمية.ومن هنا تأتي الورقة لتشير الإشكالية، في إطار المحتوى السردى ،حيث وقع الاختيار على " الشمعة و الدهاليز" للطاهر وطار . و منه نبادر لطرح الإشكالات المعرفية التالية: ماهي أوجه التعدد الثقافي التي كشفت عنها الرواية؟ماهو الإطار الموضوعي لها؟ ماهي قيم التعايش التي جسّدتها؟.

الكلمات المفتاحية: التعدد الثقافي؛ الإنسان؛ التعايش؛السرد.

Abstract:

Man has always been a source of great ambiguity, because his intellectual nature is based on difference, which is reflected in the general view of life, and therefore many concepts have appeared that have tried to express this situation, including "diversity" or "plurality", which means divergence in views, both in Politics, economics, religion or culture. Hence, we are faced with various patterns, including cultural diversity, the subject of our study, with its necessities of a culture of coexistence and acceptance of the other in every peaceful spirit. And the corridors" by Taher Watar. From it, we proceed to pose the following epistemological problems: What are the aspects of cultural pluralism revealed by the novel? What is the objective framework for it? What are the values of coexistence that you embodied?

Keywords: multiculturalism; human; symbiosis; narration.

1. مقدمة:

من المسلم به أنّ العالم ليس مجتمعاً واحداً، وإنّما كتلة كبيرة جداً مؤلفة من عدّة مجتمعات، إذ لكلّ مجتمع ثقافته الخاصة من عادات و تقاليد و أعراف التي تشمل الأكل و الملبس و الزواج و غيرها من الطقوس، التي تتأسس عليها حياة أفرادها اليومية.

هذا بالإضافة إلى القيم و المبادئ الدينية التي يحيون بها، حيث تضمن لهم الاستقرار و العيش بسلام بعيداً عن التنازع و الصراعات الداخلية.

فالثقافة- إذن- تمثل بوصلة المجتمع، إذ لا يستطيع البشر-أينما كانوا- أن يدركوا دونها من أين جاؤوا، و لا كيف يجب عليهم أن يعيشوا حاضريهم، أو حتى كيف ينبغي أن يتصرفوا في مستقبلهم. ولسنا هنا بصدد إغراق القارئ في جملة من التعريفات لهذا المفهوم، الذي تتجاذبه مجالات معرفية عديدة؛ كعلم الاجتماع و علم النفس و الأنثروبولوجيا و غيرها، و إنما سنحتزل القول في عبارة مفادها أن الثقافة هي مجموع المعارف المكتسبة و الجوانب الفكرية للحضارة بشقيّ مجالاتها.

و بناءً على هذا المفهوم المختزل يمكن القول بأنّ التنوع / التعدد الثقافي ليس مجموع الثقافات التي تملأ الكون فحسب، وإنّما هو الإنسان في حد ذاته، إن شئنا أن نضع الأمر في موضعه الحقيقي، فليس ثمة ثقافة خارج الكيان الإنساني، ذلك أن الأخير هو الذي أوجد هذا الإفراز الثقافي الضخم الذي لا يعدّ و لا يحصى.

و بما أنّها تمثّل الأفكار و المعتقدات، فلا بد أن تتضمن جملة الآراء، وردود الأفعال المتعلقة بالأفراد مع العلم أن الفرد، قد يتجاوز ثقافته المحلية، لينفتح على ثقافات أخرى، إذ يتعلق الأمر بالقوانين و النظريات ذات الصلة بالمجالات الحساسة، التي تشكّل عصب المجتمع، ذلك أن مفهوم الثقافة لا ينحصر في الأفكار الأدبية و نشاطاتها من شعر و مسرح... الخ.

و يأتي هذا في ظل توفر عدد من المنتجات الإعلامية التواصلية التي تنتشر في المجتمعات الإنسانية باختلافها و تنوعها، على غرار الكتب و المجلات و الصحف و البرامج التلفزيونية و مواقع الانترنت... الخ.

ففي كل مجتمع، توجد أقلية ذات خصوصيات متباينة عن الآخرين، و هنا ينبثق التساؤل التالي: هل يتم قبول و دعم هذه الفئة في المجتمعات العربية؟.

إنّها في حقيقة الأمر مسئوليّة الدولة، حيث ينبغي أن تفرض درجة معينة من التسامح و التعايش وفق ما ينص عليه الدين الإسلامي الحنيف دون صراعات عنيفة، و ذلك بتشجيع ثقافات الأقليات لدعم أفكارهم و معتقداتهم، التي ينبغي أن لا تنتهك بدورها عادات و تقاليد و أعراف الغير.

و منه نخلص إلى أن التعدد/ التنوع الثقافي يتطلب جوًا من الديمقراطية و التسامح و الاحترام المتبادل بين الفئات المختلفة، مما يخلق مجتمعا غنيا، و يوسع الخيارات، و يغذي القدرات، فضلا عن أهميته الكبيرة في تحقيق الكثير من الإيجابيات التي نختزلها في النقاط التالية:

* يعدّ المحرك الرئيس للمجتمعات ، كما أنه أساس التنمية المستمرة لها مما ينعكس بشكل إيجابي على صورتها في المشهد العالمي.

* يعطي للأفراد حرية التعبير عن أفكارهم و نشر ثقافتهم و تبادل آرائهم ، سواء السياسية أو الاقتصادية أو الدينية و غيرها.

* يُثري من وجهات النظر ويُشكل بؤرة لتبادل كل ما هو مفيد، كما يُساهم في تحقيق الديمقراطية بصورة راقية.

* يزيد من تعاون العلماء والسياسيين ورجال الدولة وصانعي القرار.

* يزيد من الإبداع في مختلف مجالات الحياة.

ذلك -إذن - التعدد/ التنوع الثقافي ،الذي يعترف بشرعية جميع الثقافات الموجودة في المجتمع الواحد وإعطاء الفرصة للحريات الفكرية ، و يوسع نطاق الخيارات المتاحة لكل فرد عن طريق التداول الحر للكلمة صوتا و صورة دون عائق. ولعل الأدب من أبرز الوسائل في إثارة هذه الإشكالية ،في صورة الرواية كما أسلفنا الذكر، لنقف إزاء حدود التساؤل المعرفي التالي: كيف يسهم النص الروائي في إيصال صورة التعايش الثقافي في المجتمع؟.

هذا ما ستجيب عنه الورقة البحثية تطبيقيا ،من خلال النموذج العملي الشمعة والدهاليز، وقبل ذلك الوقوف وقفة نظيرية موجزة، عند ماهية المصطلح الرئيس للبحث ألا وهو التعايش.

2. في ماهية التعايش:

إن السمة الرئيسية في تعريف كلمة " التعايش" بما تحمله من معنى هو علاقتها بكلمتي "الآخرين" و "السلم".

و من هنا جاء تعريفها بأنها : " القبول بوجود الآخر و العيش معه جنبا إلى جنب دون سعي لإلغائه ، أو الإضرار به سواء كان هذا الآخر فردا أو حزبا سياسيا ، أو طائفة دينية ..."¹. و قيل: " القبول بالآخر المختلف إيديولوجيا و دينيا و عرقيا"².

فهي إذن من المفردات السامية لتواجد بني البشر ضمن دائرة البشرية الواحدة القادرة على البناء الإنساني المتضامن، إذ تتحرك في إطار جملة من المعاني يمكن تصنيفها إلى ثلاثة مستويات بارزة هي المستوى الأيديولوجي و السياسي و الديني، مما يعني عدم الإقصاء و التذويب للأفراد أو الأقليات الأيديولوجية و السياسية و الدينية .

و مثلما للتعدد/ التنوع أهميته ، فإن التعايش كذلك، حيث يعمل على تحقيق الاندماج بين الفئات المختلفة ، و كذا يعمل على تعزيز الثقة و الاحترام المتبادل بينها، فضلا عن إيجابيات أخرى، نلخصها فيمايلي:

* تحقيق الاستقرار في البنية المجتمعية، مما يكرس الوحدة الوطنية بخلاف الصراع الذي ينتج عن التنافس و التعصب.

* تحقيق الرغبة في التعاون بين أفراد المجتمع الواحد في المجالات و الميادين ذات الاهتمام المشترك بينهم.

* صهر الانتماءات الفكرية في بوتقة واحدة يكون الهدف من اتحادها هو خدمة الوطن و التقدم به نحو الرقي و الازدهار.

ذلك- إذن- التعايش الذي يذيب كل صراع و يعمل على ترويض الخلاف ، مما يفتح قنوات التواصل من أجل التبادل الفكري ،حيث يتأسس على قبول رأي الآخر و سلوكه، القائم على مبدأ الاختلاف ، و احترام حريته و طريقة تفكيره، و آرائه السياسية و الدينية ، مما ينافي التسلط و الأحادية و القهر و العنف.

3 الإطار العملي التطبيقي:

1.3 التعددية الثقافية و تشكّل السرد في الشمعة و الدهاليز:

يتشكّل السرد في الشمعة و الدهاليز الصادرة سنة 1996 بناءً على ثنائية ثقافية بطلها شخصيتين إحداها رئيسية هي "الشاعر" و الأخرى ثانوية هي "عمار بن ياسر" ، حيث تشتغل في إطار العلاقة الجدلية بن التقليد و الحداثة.

فالشاعر، يمثل المنحى الاشتراكي كنموذج ثقافي أول في المجتمع الجزائري فترة التسعينات ، فهو مثقف ماركسي في العقد الرابع من العمر، حيث يعيش منعزلا في مسكنه الوظيفي؛ كونه أستاذا جامعيًا يبحث في مجال علم الاجتماع.

ففي هذه الخلوة المقدسة، التي تكاد تتحوّل إلى طقوس تعبّدية، يطلق العنان لأفكاره المتداخلة، التي تتداخل فيها السياسة مع الاقتصاد مع المجتمع، إذ جاء في الرواية: " أنا هذا المجرم الذي تتمثل جرمته في فهم الكون على حقيقته ، و في فهم مايجري حوله قبل حدوثه ، أتحوّل إلى دهليز مظلم متعدد الجوانب و السرايب و الأغوار ، لا يقتحمه مقتحم، مهما حاول، و هذا عقاب لجميع، الآخرين، على تفاهة اللعبة في يد اللاعب"³.

فالمقطع السردي السابق، يكشف عن معاناة فكرية حارقة للبطل الواقع تحت سيطرة الأفكار حول الوطن و ما يعانيه من تفهقر؛ نتيجة المشاكل السياسية بين أبنائه ، و التي مرّدها الأوضاع المزرية التي انكشفت عليها حياة ما بعد الاستقلال.

فالشاعر قد خطّ لنفسه منحى للذود عن مجتمعه ؛عن طريق إعمال العقل و التفكير بحثا عن الحقيقة، خاصة و أنّه يقضي جلّ وقته في المطالعة باللغتين العربية و الفرنسية، و في التحليل و مناقشة الأمور .

فهذا الوعي قد تشكّل لديه -من دون شك- بعد الاختلاط بالثقافة الاشتراكية و المثقفين اليساريين كما صوّره السرد في المراحل التي مرّ بها الرجل، حيث كان ذلك ضمن مرحلة من مراحل التعليمية. و لعلّه من الطبيعي جدا أن يتأثر به ؛ لأنه ابن الثورة ضد الفرنسيين ، حيث خبر تلك الفترة و عاشها كما عاش الجزائريون تفاصيل البؤس و الاحتقار، ذلك أن الوضع الاجتماعي لم يكن في أحسن أحواله .

فأغلب الثوار نبتوا من طبقة اجتماعية فقيرة منهم هذا الشاعر ،الذي يمثل نموذجا من الذين عانوا الفقر المدقع، الذي دفع أبناء العملاء في المؤسسات التعليمية إلى استصغارهم كما يفصح عن ذلك بقوله: " في مدرسة القرية كانوا يتساءلون عما ألزمني بمتابعة الدروس ، و أنا في تلك الحالة المزرية : حذائي مرقع من كل جهة (...). سروالي بدوره، صمد عدة سنوات، ثم راح يستنجد بالإبرة الخيط، و أصابع أُمّي"⁴.

و ليس هذا فحسب ، بل إن النضال الفكري، الذي يمارسه في إطار الفكر الاشتراكي هو امتداد للنضال المادي الجسدي أثناء الثورة ،حيث كان " مشتركا (...). عن طريق نقل الأخبار عن تحركات الجنود الجزائريين الفرنسيين ، لوالده و لعمه المختار"⁵.

فالذي يناضل بجسده سيناضل حتما بفكره ، خاصة إذا كان على درجة من الثقافة و الوعي مثل هذا البطل الروائي، الذي يحرك دواليب الشمعة و الدهاليز، التي نسج صاحبها شبكة خيوطها من الماضي و الحاضر، أي الماضي الثوري و الحاضر التسعيني، ليربط حلقة وصل بين المرحلتين ،اللتين و إن بدتا مختلفتين إلا أنّهما ترتبطان أشد الارتباط.

فالعلاقة، تتجلى في كون المشاكل، التي عرفت المرحلة الثانية سببها أن " السلطة التي ورثت الثورة الجزائرية قد فشلت في تحقيق مشروعها في بناء مجتمع ما بعد الاستقلال(...) يتخلص من سلبات الاستعمار التي عانى منها الجزائريون في المجالات الاقتصادية و السياسية و الاجتماعية و الثقافية "⁶.

فالشاعر كجزائري أولا ،يرفض الوضع السياسي الاستغلالي السائد، و كاشتراكي ثانيا يرفض التطبيق الخاطئ للاشتراكية ، ذلك أن مؤسسات الدولة شقت طريق هذا المنهج على شاكلة الدول العربية ، بالاستناد إلى الظروف التاريخية و الاجتماعية⁷ ،التي فرضت نفسها على العقل العربي ،ووجهت نظره السياسية و الأيديولوجية في تلك الفترة من الزمن.

بيد أنّها لم تفلح إلا في بناء مجتمع انطوى على تناقضات أفضت إلى الكارثة العظيمة، التي لم ينتبه إلى إرهاباتها من يحول دون وقوعها؛ في ظل سياسة الحزب الواحد، الذي اكتفى قاداته بترديد الخطابات الحماسية الفارغة، لتتقطع مع الانقطاع عن الشعب بعد استلذاذ السلطة و التفرّد بالنعم باسم الثورة.

فالبلاذ وقعت في أيدي أقلية انتهازية، عملت جاهدة على تحقيق مصالحها الشخصية، في مقابل تهميش الفرد و إقصاء دوره في المشاركة الجماعية من أجل المصلحة العامة، حيث يؤكد ذلك السعيد بوشعير بقوله "أن اهتمام السلطة ببناء دولة قوية من القاعدة ساهم بقدر كبير في تكوين طبقة بيروقراطية قوية"⁸.

و بالتركيز على الفكرة الثانية التي تعيننا- في هذا المقام - في إطار التنوع الثقافي، و تحديدًا ثقافة البطل الاشتراكية، فإن الدولة و هي تسير في هذا المنحى أملاً في تحقيق العدالة الاجتماعية و القضاء على البطالة و الفقر و التخلف قد تبنت الطريقة المتسرّعة و الارتحالية دون التخطيط الدقيق و الدراسة الاستشرافية للآفاق المستقبلية.

فالمعضلة الحقيقية في الجزائر آنذاك في إطار عملية البناء و التحديث هي الاهتمام بالمادة لا الإنسان، بينما الأخير هو الحركّ الفعّال لعجلة التطور الاجتماعي و المتحكم في سيرورة التاريخ، لاسيّما حين يكون في صراع مرير مع ظروف الحياة التي تقف عائقاً في وجهه.

فالذي سعت إليه الدولة هو استيراد الوسائل حسب ما تستدعيه تلك المعرفة الأيديولوجية رغم أن المعرفة بشكل عام لا تثمر إلّا في تربة صالحة و مهيّأة لذلك بعناصرها الضرورية؛ منها الإنسان و ما يملكه من أبعاد فكرية تتباين من فرد إلى آخر، حيث تسهم بتضافرها في الدفع بالتنمية الوطنية بشكل تدريجي وفق ما يتلاءم مع معطيات العصر.

وقد كان الاقتصاد، الذي يمثل العصب الحساس لأي مجتمع موطن الممارسة البنائية لدولة جزائرية تمتلك مقومات الحداثة و التجديد، إلّا أنها إصلاحات أقل ما يقال عنها أنها مجرد إجراءات سطحية فرضتها ضرورة الواقع، حيث لم تنجح في تحسين الأوضاع الداخلية.

فكما يقول أحد الدارسين عن نتائجها السلبية "قلّت الاستيرادات و تعطلّت المشاريع الاقتصادية و عمّت الفوضى كل المجالات و لم تفلح الإصلاحات المتتالية في استعادة البلاد توازنها الاقتصادي"⁹.

فكل هذه الظروف- إذن- مجتمعة حرّكت عقول المثقفين الجزائريين منهم أصحاب النوع الثقافي الاشتراكي - طرفنا الأوّل- في هذه الدراسة، الذين يتأدلجون بنفس أيديولوجية المؤلف؛ في صورة بطلنا الشاعر، ذلك أنه بطبيعة الحال ما كان عليه الوضع في الجزائر حسب السياق الذي يحيط بالرواية يستدعي حلاً يقوم على مبدئين أساسيين في المنهجية الاشتراكية، أي العدل الاجتماعي و القضاء على الاستغلاليين.

و ما ينبغي التنبيه إليه هو الذكاء الذي يتميز به الروائي، الذي يتجلى في الاسم الذي أطلقه على الشخصية الرئيسية لعمله، حيث يتناسب و الرؤية الاشتراكية، التي تنتمي إلى المذهب الواقعي من جملة المذاهب الأدبية.

فهذا الأخير يرى أصحابه بأنّ " الشاعر الحق (...) محكوم عليه بأن يخلق أبدا بين عالمين هما: الحاضر والمستقبل. فالحاضر كيفما كان؛ منطلق المستقبل، و لا تتميز خيوطه إلّا على ضوء " الأمس"، و " الغد"¹⁰.

كما أن الرجل كان ذكيا أيضا في رسم المظاهر الجسدية من نخافة، و جفاف الملامح، و قسوة النظرة لهذا البطل، الذي مادام متأدلجا بأيدولوجية معينة؛ فمعناه أنه ذو نزعة تفكيرية، و أي نزعة إنها الاشتراكية ثورة ذلك العصر، حيث انعكس التفكير على جسده.

ومن ثم، يمكن القول بأن الطاهر وطار قد سخر المعطيات الخاصة بالبناء الجسماني لتشخيص العزلة و المرارة التي عاناها المثقف الجزائري.

ذلك- إذن- النموذج الثقافي الأول في المجتمع الجزائري بعد الاستقلال، أما الثاني فهو النموذج الديني ممثلا كما - أسلفنا الذكر- بشخصية "عمار بن ياسر" في العقد الثلاثين من العمر، الذي يعمل مهندسا للنفط. فنحن إزاء جيل آخر هدفه، مثلما صوّره الرواية هو تقويض أركان النظام القائم في البلاد بعد أن فقد الثقة فيه، بل حتى من المقربين؛ لكونهم، ينتمون إليه لذا قرّروا الخلاص منه و من كل من يمثله.

فعمار الشاب أحدث قطيعة مع والده المناضل السابق في صفوف الجبهة، الذي ليس فردا ضمن العصابة المفترسة، التي سيطرت على البلاد بعد الاستقلال من أجل خدمة مصالحها الشخصية، إلّا أنه كان يميّ النفس بأن يكون واليا أو سفيرا وما شابه.

فهو يرى فيه النقيض له، ذلك أنه " يستخدم نفس أساليب المستعمر، سيده السابق؛ حيث ينادي بالديمقراطية لكنه يرفض النتيجة التي ليست في صالحه". جاء في الرواية: "إنّها رؤيتك ياسيدي التي ليست سوى رؤية الآخر"¹¹.

و هنا أيضا يؤدي الشكل دورا في علاقته بهذا النوع الثقافي، حيث برع وطار في صناعة مشاهد وصفية قام بتوليدها في الخطاب على شكل ملفوظات سردية يضمها المقطع التالي: "يرتدون قمصانا بيضاء، و يضعون على رؤوسهم قنصوات بيضاء متساوية الأحجام، مثلما هم متساوون السن و القامات، و اللحى المتدلّية، لا يدري المرء إن كانت اصطناعية أم طبيعية"¹².

و من ثم، فإن الجامع، الذي يجمع بين هذه الشخصية و نظيرتها الأولى الاشتراكية هو الرفض للوضع السياسي المتعفن، فضلا عن الوضع الاجتماعي، ذلك أن عمار قد عانى أيضا في طفولته رفقة الأم و إخوته بعد

أن قام الأب بجرهم تحقيقا للمطامع الشخصية، التي كان المراد منها بلوغ الغنى و الترف بشتى الوسائل و الطرق .

جاء بلسانه: " دشّن حياته التواطؤية بتطبيق أمي، بعد أن وضعني جنينا في أحشائها (...)أخواي الكبيران ، أحدهما استشهد رحمه الله ،و الثاني التحق بالجيش ، و بقيت أمي مع ثلاث بنات ، تعاني العزلة و المرارة و ضيق ذات اليد ، فما كان يدفعه لها قليل جدا ، و كثيرا ما كان ينسانا عدّة أشهر"¹³.

فالوالد- إذن- شأنه شأن من حملوا لواء السياسة الاستغلالية بعد ثورة كبيرة للأسف، يعاني تزمنا سياسيا كان هو السبب في القضاء على القيم التي تؤمن استقرار المجتمع الجزائري و تحكم وحدته ، و تحقق العدالة بين أبنائه.

و عليه لا عجب بعد التقاطع هذا أن يعرض الروائي التنوع الثقافي ،ثم ينهيه بالتعايش، الذي يمثل المفهوم الثاني في دراستنا، و لكن قبل أن نتمثله لابس أن نقف عند السياق العام لهذا التعدد الذي شهدته الجزائر ، و ذلك بناء على الفترة التي تصدّت الرواية لمعالجتها.

2.3 السياق العام للتعددية الثقافية في الجزائر حسب الرواية:

لقد طفت التعددية الثقافية على السطح في مرحلة حرجة من تاريخ البلاد ، أي الانتفاضة الشعبية و ما تلاها من فوضى بعد أحداث أكتوبر 1988، حيث كان المطلب الرئيس هو التحول من الأحادية التي مارسها الحزب الواحد بعد الاستقلال إلى التعددية الحزبية.

و لعلّه من الطبيعي جدا أن يحدث التغيير ، ذلك أن أي سلطة في الكون هي في حركة دائمة ، حيث تعيش ضمن بيئة يطغى عليها عنصر التأثير إلّا أن التغيير الجزائري له خصوصية مع الأسف سلبية نظرا للطابع العنيف الذي تميّز به.

ففي تلك الفترة انقسم المجتمع الجزائري إلى طوائف ، حيث احتمت كل طائفة وراء شعارها الفكري الذي تناضل من أجله ما أدى إلى ظهور تيارات عديدة على غرار التيار السياسي الذي تمثله السلطة الحاكمة، و التيار الديني، الذي تمثله الحركة الإسلامية، و التيار الثقافي في صورة البطل صاحب الفكر الاشتراكي.

فالعلاقة بين هذه الأطراف هي علاقة صدامية مبنية على الصراع ، خاصة بين الطرفين الأول و الثاني التي كانت أكثر سوءا و تعقيدا ، لاسيّما بعد إلغاء المسار الانتخابي ما أشعل فتيل الحرب الأهلية التي أشعلت بدورها شرارة الدم و التقتيل.

فالجزايريون- إذن- بمختلف تنوعاتهم الثقافية و الأيديولوجية خاضوا معركة البحث عن ذاتهم الضائعة في سراديب سلطة فاسدة، تمارس لعبتها القذرة تحت غطاء الشرعية التاريخية الذي تسوّت به لخدمة مصالحها الشخصية.

و عليه يمكن القول بأن الفئة المثقفة كانت هي الدينامو المحرك للمجتمع المدني، الذي يعيش بلا حقوق مدنية و اقتصادية، حيث فقد الثقة في النظام الحاكم؛ بعد أن اكتشف زيف الديمقراطية و الاستغلال البشع لمبادئ الاشتراكية.

فالسلطة عملت على خداع المواطنين بأسلوبها الترويجي لما قامت بتعبئتهم، و تحريك طموحاتهم المشروعة في تحسين الوضع المعيشي، بينما في الواقع كانت تساند الطبقة البرجوازية من ذوي المناصب العليا في الدولة الذين استفادوا من الخيرات، كما قاموا حتى بالتأثير على القرارات السياسية و الاقتصادية.

و بالتالي ما يؤكد حقيقة الأنظمة في البلدان العربية والجزائر خاصة، إذ تعدّ " أجسام غريبة و أرخيالات سرطانية مدسوسة في البنية الجسدية للشعب، و قوى فوقية لا تشترك مع القاعدة العامة في شيء، فالوطن بها يغدو أشبه بالأحول يرى في غير وجهته بل إنها حال من الفصام لا يصطنع الشعب بها إلا شخصية مزدوجة و مختلة و مريضة"¹⁴.

فالتنوع الثقافي في البلاد، ارتبط بالوضع السياسي؛ في ظل السعي إلى التغيير الذي حدث فعلا، و لكن هذا الانفتاح الذي شهدته البلاد باختلاف ثقافتها شعبها و تنوع ألسنته و أفكاره لم يحقق الغرض، إذ لم يعرف المجتمع الجزائري التكامل و التناسق بين كل الأطراف الجديدة التي تشكلت كأحزاب سياسية.

فالفئات السياسية دخلت في تصادم سياسي و إيديولوجي و فكري، تحول " مع مرور الزمن إلى صراع حاد، كانت نتائجه وخيمة و مأساوية و ذلك بظهور العنف السياسي، الذي تحول بدوره إلى عنف إجرامي"¹⁵. فالجزائر الدولة المستقلة دخلت أزمة لم تعرف مثلها من قبل، و هي أزمة " تهدد بنسف أسس المجتمع و تقويض أركان الدولة إن لم يتم تداركها و معالجتها في الوقت المناسب و بطريقة جذرية"¹⁶.

ذلك- إذن- السياق العام الذي يدور حوله التعدد/ التنوع الثقافي، حيث يسبح ضد التيار السياسي العفن الذي عاث قمعا و فسادا، إذ اندفع الشعب الجزائري بمثقفيه للتعبير عن الشعور بالإخفاق و عدم الاستقرار النفسي و السياسي، ضمن مجتمع فقد كل عناصر توازنه الاجتماعية و السياسية و حتى الثقافية.

فلطالما كان المثقف الجزائري مجرما بأفكاره و آرائه، وبالتالي مرفوضا أمام بعض السياسيين في بلادنا و بلاهتهم، فإما أن يسرونه وفق القالب الذي يضعونه، أو أنهم يقومون بالتشويش عليه و مراقبته.

3.3 . التعايش في الرواية:

يراد بالتعايش كما أوردنا سابقا في التنظير القبول بوجود الآخر و عدم إغائه، حيث نلمس هذا جليا في الرواية من خلال بطلها الماركسي، الذي استطاع التواجد جنبا إلى جنب مع شخصية عمار الإسلامية رغم اختلافهما في الانتماء.

فالشاعر قد غيّر من طريقة تفكيره بعد أن كان يرفض الإسلاميين؛ لكونهم تيارا رجعيا -في نظره- يقوده مجموعة من الأصوليين، ليس باستطاعتهم تقديم البديل المقنع و الكافي، الذي يخرج البلاد من ظلماتها نحو النور.

فالرجل وجد من الضروري التقرب منهم ، لعل الدين يكون عامل خلاص، مع العلم أن هذا التحول و التغيير لا يتناقض مع الفكر الماركسي ، ذلك أن الهدف الجوهرى هو تحقيق مصالح الجماهير الفقيرة الكادحة. فهو - إذن - ذو عقل متجدّد، الذي جعله يتجاوب مع الآخر، إذ يأتي هذا بعد الخيانة التي تعرّض لها كباقي الشعب من سلطة انتهازية حملت لواء الاشتراكية ، و لكنّها خانت المبادئ ، بحيث تحوّل المناضلون التقليديون إلى تجار متكسّبين باسم الثورة على حساب الجزائريين المستضعفين .

و لم يقتصر التعايش على شخصية الشاعر، بل امتدّ ليشمل عمار الذي كان هو المبادر حين أوقفه ، وراح يعرض عليه الانضمام إلى الدولة الإسلامية ، باعتبار الأخيرة بحاجة إلى الرجال المحترمين و العلماء.

جاء بلسانه " أنت رجل محترم . و ينذر أن يصادف المرء مثلك ، و إذا لم تحب ظنوني فيك ، فإنك واحد ممن تحتاج إليهم دولتنا الفتية، نحن في حاجة إلى علماء مؤمنين ، و يبدو أنك عالم ، و هذه الشجاعة لا تصدر إلّا عن رجل قوي الإيمان ، قوي الثقة بالله و النفس"¹⁷.

فهو ليس كباقي الجماعة الإسلامية، بل يختلف عنهم في كونه يميل إلى الاعتدال، و نبذ الجهل و التطرّف ، إذ يعد نسيجا غنيا بالتنوع ، و بعيد عن التعصّب العرقي أو القومي أو الانحصار في هويّة جامدة.

و لعلّ أبرز قيمتين، يتركز عليهما التعايش في هذه الرواية بين الشخصيتين الماركسية و الإسلامية هما الحوار و التعاون .

1-الحوار:

استعمل وطار نوعان منه هما الداخلي و الخارجي الذي يعنينا في هذا المقام ، حيث يراد به " عرض درامي الطابع يتضمّن شخصيتين أو أكثر وتقدّم من خلاله أقوال الشخصيات في الرواية بالطريقة التي يُفترض نطقهم بها"¹⁸.

فهذه الآلية السردية، تمثل أولى بوادر التعايش المتجسدة في الرواية ضمن المساحات، التي خصصتها الروائي كمقاطع حوارية بين فكر عمّار و فكر الشاعر، إذ سمح الأخير بولوج عالمه الخاص المظلم، بعد كان يأبى الاختلاط مع الغير .

و عليه، مما يؤكد أن المثقف الملتزم بقضايا مجتمعه لا يجوز له، بل لا يمكنه أصلا الانعزال عن الواقع مهما كان مختلفا عن أفراد ، سواء العاديين منهم أو المثقفين مثله ،الذين يختلفون معه في الرؤية و التفكير و الانتماء.

فبعد حديث قصير رضي كل منهما بالآخر ، إذ أدرك الشاعر بأن اليد الإسلامية التي امتدت له لكي تصافحه ليست مدمرة، و من جهته عمار أعجب بفكره ، حيث رأى فيه كل الشروط و المقومات العلمية و الثقافية لقيادة مجتمع.

فكانت النتيجة -إذن- لقاء فكريا صنعته جملة من التساؤلات، حيث أثمر علاقة صداقة بين الطرفين ، ليحدث التلاقح بين الفكر الماركسي و نظيره الإسلامي، الذي لم يحدث اعتباطا ، و إنما لهدف يخدم الغرض العام للرواية و مقصدية الروائي.

فالشمعة و الدهاليز جاءت عرضا تاريخيا لمرحلة حرجة من مراحل الجزائر ، أو بتعبير أدق لنظامها الذي وقع في مأزق تفكك الأيديولوجية الماركسية و صعود التيار الديني السلفي إلى الواجهة.

فأصحاب الاتجاه الأول يربطون مشروعية السلطة بالعقل و العلم، بينما المنتمين إلى التيار الثاني يعزونها إلى المطلب الإلهي الذي ينبغي أن يتحقق في نظرهم عن طريق بناء دولة إسلامية تستمد أسسها و مبادئها من السلف الصالح.

فالطاهر وطار اعتمد تقنية الحوار للتعبير عن الوضع السياسي حين جعل البطل الاشتراكي، ينساق في حوارهِ نحو التيار الديني، و بالتالي يصبح واحدا من أفرادهِ متأثرا بالقائد المعتدل ، فهو مصور يحاول أن يرصد بعدساته كل جديد يطرأ على الساحة السياسية ، باعتماد مختلف الوسائل و التقنيات الفنية.

ومن دون شك لم يكن لينتهي عمله بهذه الكيفية لولا ضرورة التصوير الواقعي كما هو دون زيف أو تحريف ، كيف و الرجل من المشبعين بالفكر الماركسي، الذي يبدو جليا في كتاباته الروائية ؛على اعتبار أن الأيديولوجيا، تظهر عادة خارج النطاق الأدبي ، لكنّها سرعان ما تمارس حضورها المكثف في ذات المبدع ليعيد إنتاجها داخل النص الإبداعي.

و في الوقت نفسه هو من الراضين للإسلاميين ، فهم في نظره حشود لا ترى في الإسلام سوى الجبة و اللحية ، و لم تأخذ منه سوى الظاهر و أغفلت اللبّ، ما أدى إلى تعصّبهم و رفضهم للآخر ،الذي يتباين عنهم بخلاف البطل طبعاً.

و لعلّ ما يؤكّد استصغاره لهذه الفئة و لدورها في قيادة البلاد هو التذبذب الذي ألصقه بها، في صورة الاختلاف بين مجموعة الملتحين حين أوقفوا الشاعر، حيث اختلفوا في تسمية حكمهم ما بين " الدولة الإسلامية" ، و " الجمهورية الإسلامية"، و " الخلافة الإسلامية" ، و كذلك " الحكم الإسلامي".

2-التعاون:

لقد زكّت علاقة الصداقة بين الرجلين الشاعر ووزيرا للفلاحة في دولة الحكم الإسلامي ، ليتعاون مع قائدها و رفاقه ، حيث يظهر التعايش هنا أيضا من كلا الطرفين، إذ قبل البطل الماركسي العمل تحت لواء من كان يعارضهم سابقاً.

و من جهته القائد الإسلامي تعايش معه ؛بدليل توظيفه في المنصب المشار إليه ، وقد كانت نتيجة هذا التعاون لبناء مستقبل حقيقي جديد للجزائر هي اغتيال الشاعر بطريقة رهيبة ، حيث تمت إدانته من مجهولين بعد محاكمة عسيرة، تلقى فيها شتى التهم ما بين الاتصال بالأشرار من أجل قلب النظام ، وممارسة الشعوذة ، و الزندقة ،و العداء للغربيين ...و غيرها.

فالرجل كان مراقبا من أول يوم دخل فيه المسجد الأقصى إلى أن زاره رجال الأمن متخفين في زي إسلامي في بيته ، و لكنه رفض أن يفتح لهم قائلًا " تعالوا للمعهد إن كنتم تريدوني في أمر ما"¹⁹، ثم زاروه للمرة الثانية في هيئة ملثمين عددهم سبعة بأسلحتهم التي وضعت حدًا لحياته.

فهذه النهاية خلّفت حزنا شديدا في نفس القائد عمّار ، الذي ردد فيها عبارات يرثي بها الشاعر واصفا إياه بالشهيد ، و من هنا" تنفتح القراءة على واقع أسوء، مضمونه إطفاء شمعة المثقف الوطني الرمز ، ليشعل مكانها فتيل الأعمال الإرهابية بشتى أنواع القتل و الاغتيال.

4. خاتمة:

نستشف بعد معالجتنا لهذا الموضوع ، بأن الشمعة و الدهاليز مرآة المجتمع الجزائري ، حيث تعكس ثقافة شعبه و تنوع أفكاره ، إذ يسعى كل نوع إلى إثبات ذاته المختلفة عن الذوات الأخرى.

فهي تبين تعامل أفرادها مع مكوناتهم الثقافية و الدينية، في إطار السعي لإصلاح الوضع السياسي الفاسد للبلاد، فضلا عن كونها تقدم درسا في التعايش مثلما رأينا بين الشخصيتين البطلة و الثانوية ،اللتين تختلفان في

الانتماء، و مع ذلك قد تأسست العلاقة بينهما بناء على معطيات كثيرة، شكلت أوجه الانسجام بين الطرفين نوضحها فيما يلي:

* كلاهما مثقف يحكم العقل و ينبذ التعصب.

* كلاهما يؤمن بالحوار و الانفتاح على الآخر.

* كلاهما يسعى لمصلحة البلاد و ليس المصلحة الشخصية.

و منه نصل إلى النقطة الأهم، و هي أن السرد الروائي الجزائري قد تفاعل مع التعدد كمظهر من مظاهر نوااميس الطبيعة المؤطرة للكينونة الإنسانية، المبنية على الاختلاف و التمايز الديني و الثقافي بين الأفراد في الرقعة الجغرافية الواحدة ، لاسيما الطاهر وطار نظرا للطابع الأيديولوجي، الذي يميز رواياته في ارتباطها بالواقع المعاش ، سواء السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي.

ومن هنا، نخب بالدارسين على اختلاف مستوياتهم معالجة هذه الإشكالية المهمة بشكل أعمق، في رسائل تخرجهم، سواء تعلق الأمر بالأديب النموذج أو غيره من الأدباء،الذين عايشوا المراحل الحساسة،التي مر بها المجتمع الجزائري عبر الزمن .

5- الهوامش:

1. مها طالب الجبوري، مبدأ الخالقية وأثرها في التعايش السلمي، مجلة كلية التربية الأساسية، المجلد 22، العدد 93، 2016، ص 269.
2. عبد الرحمان مجدوبي، الوجه الآخر لمفهوم التعايش، الموقع الآتي: <https://altanweeri.net/?p=3305>
3. الطاهر وطار، الشمعة و الدهاليز، (د.ط)، (د.ن)، (د.م)، (د.ت)، ص 9.
4. المصدر نفسه، ص 39.
5. محمد محمود الخزعلي، على مفترق طرق : دراسة في رواية الشمعة و الدهاليز للطاهر وطار، مجلة التواصل، عناية، العدد 14 جوان 2005، ص 273-274.
6. المرجع نفسه، ص 269.
7. يراجع : طعيمة الجرف، أبحاث في المجتمع العربي : القومية العربية و التطور السياسي للمجتمع العربي، (د.ط)، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة، 1964، ص 262-263.
8. سعيد بوالشعير، النظام السياسي الجزائري، ط 2، دار الهدى، الجزائر، 1993، ص 106.
9. حسان راشدي، الرواية العربية الجزائرية، مرحلة التحولات 1988-2000، بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه، جامعة قسنطينة ، إشراف : يحي الشيخ صالح، 2001، ص 370.
10. نسيب نشاوي، مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص: 331.

11. الطاهر وطار، الشمعة و الدهاليز، ص150.
12. المصدر نفسه، ص14.
13. المصدر نفسه، ص69-70.
14. سليمان عشراقي، الخطاب السياسي و الإعلامي في الجزائر، (د.ط)، دار الغرب، وهران، 2003، ص110.
15. حكيم أومقران، البحث عن الذات في الرواية الجزائرية (الطاهر وطار نموذجا) -مقاربة سوسيو-ثقافية، (د.ط)، دار الغرب للنشر و التوزيع، وهران، 2005، ص8.
16. محمد محمود الخزعلي، على مفترق طرق : دراسة في رواية الشمعة و الدهاليز للطاهر وطار، ص273.
17. الطاهر وطار، الشمعة و الدهاليز، ص21.
18. عمر عروي، التشكيل اللساني في حوارية الرواية عند الطاهر وطار الشمعة و الدهاليز. أنموذجا، مجلة الأثر، ورقلة، عدد خاص، 2012، ص140.
19. الطاهر وطار، الشمعة و الدهاليز، ص145.

6. قائمة المراجع:

• المؤلفات:

1. حكيم أومقران، البحث عن الذات في الرواية الجزائرية (الطاهر وطار نموذجا) -مقاربة سوسيو-ثقافية، (د.ط)، دار الغرب للنشر و التوزيع، وهران، 2005.
2. سعيد بوالشعير، النظام السياسي الجزائري، ط2، دار الهدى، الجزائر، 1993.
3. سليمان عشراقي، الخطاب السياسي و الإعلامي في الجزائر، (د.ط)، دار الغرب، وهران، 2003.
4. الطاهر وطار، الشمعة و الدهاليز، (د.ط)، (د.ن)، (د.م)، (د.ت).
5. طعيمة الجرف، أبحاث في المجتمع العربي : القومية العربية و التطور السياسي للمجتمع العربي، (د.ط)، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة، 1964.
6. نسيب نشاوي، مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.

• المقالات:

1. عمر عروي، التشكيل اللساني في حوارية الرواية عند الطاهر وطار الشمعة و الدهاليز. أنموذجا، مجلة الأثر، عدد خاص، 2012.
2. محمد محمود الخزعلي، على مفترق طرق : دراسة في رواية الشمعة و الدهاليز للطاهر وطار، مجلة التواصل، العدد 14 جوان 2005.
3. مها طالب الجبوري، مبدأ الخالقية وأثرها في التعايش السلمي، مجلة كلية التربية الأساسية، المجلد 22، العدد 93، 2016.

● الرسائل الجامعية:

حسان راشدي، الرواية العربية الجزائرية، مرحلة التحولات 1988-2000، بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه، جامعة قسنطينة، إشراف: يحيى الشيخ صالح، 2001.

● مواقع الانترنت:

عبد الرحمان مجدوبي (2016)، الوجه الآخر لمفهوم التعايش، الموقع الآتي:

<https://altanweeri.net/?p=3305>